

أسلوب الحوار الإقناعي في القرآن

محمد حسن معصومي*

عضو الهيئة التعليمية - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة آزاد الإسلامية، واحد (فرع) قم

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٤/٣/١؛ تاريخ القبول: ١٤٣٤/٦/١٦)

ملخص المقال

لفن الحوار النصيب الأوفر من بين أساليب القرآن الكلامية التي لا تكاد تنتهي إلى حد. ويُعد الحوار القرآني طريقة خاصة، يُطَّلَع من خلالها المتلقي على مختلف المواقف الفكرية للأمام الماضية، كما يُطَّلَع على مجمل التوجهات العقدية لتكلم الأمم؛ فضلاً عن ذلك فإنَّ الحوار في القرآن يُوظَّف أيضاً لأغراض إقناعية تتم بوسائط وإمكانات متنوعة، حسب ما تتطلبه الظروف والأجواء، وهذه الوظيفة الأخيرة هي ما نريد استجلاء جوانبها الفنية البديعة، وذلك ضمن مجموعتين متعالقتين من الآيات، حيث تتناول المجموعة الأولى موقف "مؤمن آل فرعون" من سرارة قومه، محاولاً إقناعهم بفساد توجههم العقدية وهشاشة نظرتهم نحو الواقع وذلك من خلال أسلوب قولي متماسك يتمثل في مناهج منطقية وعاطفية وتاريخية؛ كما تصوِّر المجموعة الثانية من الحوارات، الحالة المزرية المقيتة التي يعيشونها في نار جهنم، ويتم هذا التصوير بلغة إنشائية وخبرية تجنح إلى معان عدولية (ثانوية).

الكلمات الرئيسية

الحوار القرآني، أسلوب الحوار القرآني، إقناع المتلقي، طرق الإقناع، الانحراف الأسلوبية.

مقدمة

ثمة حوارات فنية وردت في سورة "غافر" تربطها ببعض صلة عضوية، وقد جرت تلك الحوارات ضمن مستويين؛ أما المستوى الأول فهو يدور في مسرح الحياة الدنيا بين مؤمن آل فرعون باعتباره شخصية إيمانية سوية تقوم بدور البطل في الحوار، حيث يحاول إقناع قومه من ذوي الأفكار المنحرفة والسلوكيات الشاذة مذكراً إياهم بأعوجاج مسلكهم؛ أما المستوى الثاني من الآيات فهو حوارات تدور في مسرح الآخرة وفي نار جهنم تحديداً بين سrate القوم، حيث يتبادلون التهم ويلقون اللوم على بعض، بسبب ما آلوا إليه من مصير مشؤوم، وقد تمّ في سورة غافر تصوير هذا الموقف أحسن تصوير، كما تم الكشف عن دخالهم بأبلغ القول وأجمله. ولكي نستوعب الأجواء السائدة على هذين المستويين من الحوار، ولتسيط الضوء على مكانتها الفنية، لابدّ من الإشارة إلى نقطتين أساسيتين قبل الخوض في صلب الموضوع:

أولاً) فيما يتعلق بالنظام القصصي لسورة غافر، فهناك نظام فني رصين يسود القصص الواردة في كل سورة يكشف عن متانة النص وجماليته الفائقة، وهذا ما عرض له أحد الأدباء المعاصرين ضمن حديثه عن تقنية القصة في سورة غافر بقوله: «تتضمن سورة غافر جملة من القصص تحوم على آل فرعون، وهذه القصص أو الحكايات المتنوعة ينتظمها خيطٌ يوحد بينهما، بحيث يمكن أن نعدّها قصة واحدة تتناول الحياة الطولية لآل فرعون، بدءاً من مجيء موسى عليه السلام إليهم، مروراً بهلاكهم وانتهاءً إلى مقرّهم في اليوم الآخر ثمّ النّار» (البستاني، ١٣٨٦، ص ٢٣٣).

ثانياً) لسورة غافر كما لكلّ سورة أخرى، سياقٌ عامٌ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار لمعرفة حيثيات الحوار وآلياته «لقد افتتحت السورة بالإشارة إلى ظاهرة الجدل وألمحت إلى الجزء الاجتماعي لمجتمعات كانت أشدّ قوة من مجتمع معاصري الإسلام، كما ختمت بالجزء الأخروي الذي طال المجتمعات أو المجتمع البائد الذي استهلّت السورة بقصته التي تتحدث عن موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون وصلتها بمجتمع فرعون وتعامله المجادل مع الشخصيتين المذكورتين» (البستاني، ١٣٨٦، ص ٢٣٣).

هذا وختمنا الحديث بعرض ملحوظات فنية تتعلق بهذين المستويين من الحوار، وتلك الملحوظات هي: ١. الصلة العضوية. ٢. مكانة الراوي. ٣. موقف البطل. ٤. عنصر الزمن. ٥. مكانة المتلقي. حيث تكشف هذه العناوين عن مدى أدبية الحوارات التي تمت مناقشتها في المقال.

الحوار الإقناعي في مسرح الدنيا

بداية نورد الآيات التي تمت صياغة الحوار فيها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَبْصُرْنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ (غافر: ٢٨-٣٣)

بدأ يحاول مؤمن آل فرعون - كما تخبرنا هذه الآيات - إقناع آل فرعون بصدق رسالة موسى ﷺ عبر ثلاثة مناهج إقناعية «حيث أثر كلامه فيهم إلى حد ما، فأحمد سورة غضبهم» (مكارم الشيرازي، ١٣٨٧، ج ٢٠، ص ١٠١). وقد حمل هذا الإقناع طابعاً تعليمياً وسعى إلى تكوين متعلم وفق شروط معينة تمثلت في:

ألف) المنهج المنطقي

ب) المنهج العاطفي

ج) المنهج التاريخي

إنه يعتمد إلى هذه المناهج، فيحشرها حشراً في بوتقة واحدة، مستخلصاً في نهاية المطاف نتائج مقنعة تقطع بها السبيل على القوم، متمماً عليهم الحججة، جاعلاً إياهم في موقف حرج للغاية، فإما أن يعدلوا إلى الحق ويركنوا إليه فيسلخوا مسلك الرشد؛ وإما أن ينتهجوا منهج اللجاج والجحود والكفر، فالإقناعية التي سلكتها هذه المناهج تستند إلى جملة من مسلمات تقرّر الحقيقة في نفس المتلقي، ليسلم بها هو الآخر تسليماً. وفيما يلي نستعرض كيفية تعامله الإقناعي معهم عبر المناهج الثلاثة المذكورة:

ألف) المنهج المنطقي: منطقياً يحاول بطل الحوار القصصي، إقناع القوم بفكرته السليمة، قائلاً لهم: ﴿... وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبُّكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ...﴾ (غافر: ٢٨). يتخذ هذا الموقف وهو يعرف تماماً أن الصادق الحق كان هو موسى ﷺ ويوظف مثل هذا الأسلوب الكلامي في اللغة العربية قديماً وحديثاً، فيقول - مثلاً - علي بن أبي طالب ﷺ في كتاب له مخاطباً أهل الكوفة: «أما بعد، إني خرجت من حيي هذا، إماماً ظالماً وإماماً مظلوماً، وإماماً باغياً وإماماً مبغياً عليه» (نهج البلاغة، كتاب ٥٧). وهو يعرف تماماً أنه هو المظلوم وهو المبغي عليه. ولكنه يدعو بهذه الطريقة الخطابية الناس أن يحتكموا إلى العقل والمنطق لمعرفة الحقيقة. إذن يعتمد هذا الأسلوب العقل منهجاً للإقناع «وهو أهدأ الأساليب وأكثرها احتياجاً إلى المنطق السليم والفكر المستقيم وأبعدها عن الخيال الشعري؛ لأنه يخاطب العقل ويناجي الفكر ويشرح الحقائق العلمية التي لا يخلو عن غموض وخفاء؛ وأظهر ميزات هذا الأسلوب الوضوح» (الجارم وأمين، ١٩٦٩، ص ١٢). فعلى أيّ فإنّ مؤمن آل فرعون يصرّح بقوله: إنّه - أي موسى ﷺ - إماماً يكذب عليكم وإماماً يصدق في دعوته، فإذا كان كاذباً، فلا يضرّكم كذبه شيئاً، لكن من المحتمل منطقياً أن يكون صادقاً، فتحل عليكم - والحال هذه - الويل والثبور نتيجة عدم طاعتكم إياه.

ملحوظة بلاغية

ثمة ملحوظة بلاغية رائعة لا تفوتنا الإشارة إليها، وهي أنّ البطل يوظف أسلوباً ذكياً في مخاطبته الجاحدين، حيث يقدم تعبير: ﴿إِنْ يَكُ كَاذِبًا﴾ على تعبير: ﴿إِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ حذراً من أية إثارات محتملة تبعث في نفوس المعاندين حالة سوء الظن به وبدعوته، فيخالوه ناصراً لموسى ﷺ ثم يعارضوه بسبب انتصاره له. ونجد وجه ذكاء المتكلم في استخدام مثل هذا الأسلوب في كلام أحد النقاد المعاصرين: «وتغيير الترتيب بالتقديم والتأخير يمثل عدولاً عن هذا الأصل المثالي واختراقاً للحركة الأفقية المنتظمة المسيطرة على بنيته العميقة، تبعاً لعنصر القصد عند المبدع، حيث تتوافق البنية السطحية المخالفة مع اتجاه الحركة الكلامية عند المبدع» (البيجيري، ٢٠٠٠، ص ١٣٨). ويقول ناقد آخر: «فالتقديم والتأخير يرجع إلى فنية الأديب، وهذه الفنية المتشابكة مع حسّه الشعوري واللا شعوري هي التي تتدخل في التركيب اللغوي للعبارة» (عيد، ١٩٨٣، ص ٤٩).

ب) المنهج العاطفي: عبر توظيف هذا المنهج الإقناعي يثير مؤمن آل فرعون عاطفة المتلقين ويبعث فيهم الشعور بالقلق، وذلك بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا...﴾ (غافر: ٢٩)، فتلاحظ أنه يستدرجهم نفسياً إلى أجواء إيحائية تبعث فيهم الخوف والرعب، داعياً إليهم إلى التروي والتفكير في عاقبة أمرهم. إن السمة الرئيسة لهذا الأسلوب هو كونه إيحائياً والذي يُعد بدوره سمة من سمات اللغة الأدبية. يقول الدكتور صلاح فضل في هذا الشأن: «إن الطابع الإيحائي من أهم خصائص اللغة الأدبية، وهو يتمثل لونا من تعدد المعنى الدال الناجم عن وضع قيم متراكبة فوق الوظيفة الإعلامية الخالصة للغة» (فضل، ١٩٩٨، ص ١٦٢).

ج) المنهج التاريخي: من خلال هذا المنهج يستثير ذاكرتهم التاريخية وينشطها ليدفعهم نحو أخذ العبرة، لذلك يخاطبهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ (غافر: ٣٠-٣١)، نلاحظ أنه يدفعهم عبر توظيف الآلية التاريخية إلى النظر في مصائر الناس لدى الأمم البائدة والاستعبار منهم، حيث أيبسوا بعد أن أمعنوا في الغي والعدوان، وبعد أن عتوا عن أمر ربهم فصاروا يستحقون العذاب. أخيراً يذكرهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مِثْلَ مَثَلِ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ...﴾ (غافر: ٣٢-٣٣)، هنا يرسم لهم خطأ مستقبلياً واضح المعالم إذ يحذّرهم مما يؤلون إليه من عقاب أليم، إذا ما ساروا على نهجهم المظلم وعلى طريقتهم المعوجّة، كما يرسم أوضاعهم المقذعة حينذاك، إذ ينادي بعضهم بعضاً في استكانة وذلّ وهم قد يسّسوا تماماً من أن يجدوا مأمناً وملاذاً.

ميزة الحوار الماضي

ثمة ثلاثة سمات تميّز هذا الحوار الماضي هي:

ألف) يتخذ البطل في هذا الحوار القصصي، إمكانات تسمح له أن يفحم القوم ويقنعهم، فهناك تذكير بالتاريخ وهناك إثارة للعاطفة والوجدان وهناك الاحتجاج بالمنطق والعقل. وكأنه استطاع عبر هذا الأسلوب الخطابى أن يسدّ كافة الطرق والمنافذ أمام الجاحدين للحق حتى باتوا لا يقدرّون على التذرع بأية ذريعة؛ فإمّا العودة إلى اللجاج الكاشف عن ضعف شخصيتهم؛ وإمّا العودة إلى الصواب المتمثّل في حكم التاريخ والعاطفة والمنطق، حيث

ينم عن اتزان الشخصية وسلامتها.

(ب) مع أن زمن القول هنا يقتصر على الماضي، باعتبار أن الحوار جرى في فترة تاريخية معينة، بيد أن زمن القصة يمتد ليشمل فترات مستقبلية متطاولة، فزمن القصة - إذن - زمن نموذجي، وهو طريقة خاصة لعرض الأحداث، ومثل هذا الزمان متعدد الأبعاد، وأنه يختلف عن النظام الطبيعي في الواقع التاريخي. على هذا الأساس يمكن القول أن خطاب الحوار في القرآن يتجدد بتجدد الأمم والحضارات وتواليهم المستمر. فهو في هذه الحالة، حوار ماضي كلامياً، مستقبلي قصصياً.

(ج) يُذكر أن هناك قاسم مشترك بين هذه المناهج الثلاثة وهي كون البطل حاضراً في الساحة، بل هو الذي يدير الحوار مع القوم، خلافاً للحوار الأخرى المستقبلية الذي نستعرضه في البين حيث يغيب البطل عن الساحة، تاركاً مسار الحوار للكفرة أنفسهم؛ لكن هذا الغياب هو نفسه حضور، فإذا كان البطل غير حاضر الآن، فإن هناك أبطال آخرون من ذوي النزعة الإيمانية يقومون بدور البطل، فلهم مشهد لافق وحضور طاغ. وهذه التقنية هي التي يُطلق عليها في النقد الأدبي المعاصر "علاقات الحضور والغياب".

الحوار الإقناعي في مسرح الآخرة

الحوار هنا مستقبلي لها خصائصه الفنية المتميزة، فمسرح الحوار هو نار جهنم، وقد جرى بين سراة القوم أنفسهم ممن كانوا يصرون على انتهاج طريق الباطل في جحودهم للحق، وإنكارهم لرؤية مؤمن آل فرعون الإيمانية، بل إمعانهم في الضلال، وسعيهم في إهلاك الحرث والنسل، وإنزالهم العقاب على أهل الإيمان والتكليف بهم؛ أما الآن، فيصلون نار جهنم ويقاسون عظيم هولها وشديد عقابها، فينبرون في هذه الظروف الحرجة للغاية لمعاقبة البعض، وقد اعتراهم جميعاً الشعور بالخسران والندم بسبب ما كسبته أيديهم في مسرح الدنيا من غي وضلال وبطش وعصيان. إذن يتخذ الحوار الإقناعي القائم هنا في جهنم شكلاً مختلفاً، نظراً للظروف الطارئة التي يقضونها، أما حوارهم فيكاد يندرج تحت الحوار الداخلي «ويقصد بالحوار الداخلي، المحادثة بين الشخص وبين نفسه» (البستاني، ١٣٨٢، ص ١٢٥). صحيح أن الخطاب في هذا الحوار موجّه من فرد إلى آخر أو من شخصيات إلى أخرى، إلا أنه يُعد أيضاً نوعاً من مخاطبة النفس التي خسرت كل شيء؛ لأن الحياد عن

طريق الحق يسم سلوك الأسياد ومسودين على حدٍ سواءٍ، وكأنَّهم معاً تحوَّلوا إلى شخصية واحدة تلوم نفسها. على هذا الأساس يمكن اعتبار هذا النوع من الحوار، داخلياً، فكَّهم بمثابة شخصية واحدة معدَّبة في جحيم داخلي صنعتها لنفسها.

أما الآيات التي تحوي هذا الحوار المستقبلي فهي: ﴿وَإِذْ يَتَخَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْمَةَ حَتَمَتْ أَذْغُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْ لَمْ تُكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ (غافر: ٤٧-٥٠).

جاءت هذه الآيات في لغة إنشائية وخبرية متنوعة، باعتبار أن هذه اللغة تنتج دلالات متعددة تتجاوز دلالتها الأصلية، لتسهم في إضفاء الحيوية على الصياغة، ثم إنَّها تتصف بشحنة شعورية تقتضيها مناسبة الموقف، فضلاً عما في معاني تلك اللغة من قوَّة التأثير والإقناع.

أمَّا اعتمادنا على هذه اللغة الإنشائية والخبرية في معالجة هذا الحوار، فليس من باب الحصر، وإنما اعتمادنا كمنماذج دالة على أهمية هذه الأساليب الكلامية في توجيه الخطاب إلى المتلقي.

وفي البين نستعرض جماليات هذه الأساليب في الحوار المستقبلي:

ألف) الاستفهام: عرَّف البلاغيون، الاستفهام بأنه طلب الفهم من المخاطب بصياغة معينة، بيد أنه قد ينحرف عن نمط استعماله إلى غيره من المعاني التي تُطلق عليها، المعاني العدولية، وهذا ما نلاحظ في قول هؤلاء المعذبين في النار، حيث يخاطب الرعايا أسيادهم: ﴿... فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ (غافر: ٤٧)، فمع أنهم يعرفون تماماً أن أسيادهم مغلوبون على أمرهم الآن، لكنَّهم لا يقصدون من وراء هذا الاستفهام إلا تعجيزهم، وكذلك توجيه اللوم إليهم وتقريعهم؛ لأنهم أضلَّوهم السبيل وجلبوا لهم هذا المهان وهذه الحقارة، فالاستفهام هنا لا يهدف إلى تعليم أمر مجهول، بقدر ما هو لغاية ترسيخ أمر معلوم وتقريع أمر معروف.

ثمة - إذن - تعجيز ولوم وتقريع موجه إلى القوم، وهي معان عدولية أو انحرافات أسلوبية جعلت «من الاستفهام بنية توليدية في المقام الأول، تتجاوز فيها الصياغة دلالتها الأصلية، لتنتج دلالات جديدة بمعونة قرائن الأحوال» (البحيري، ٢٠٠٠، ص ١٠٥).

ب) الخبر: يأتي الإخبار في الحوار الدائر بين جلساء النار لغرض اللوم والتقريع، حيث يكشف الزعماء عن عجزهم وتخاذلهم بأسلوب إخباري ﴿... إِنَّا كُلُّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤٨)، وكأنهم يقولون: لو كنا نستطيع فعل شيءٍ لما تقاعسنا عن إتيانه، ولو كنا قادرين على دفع العذاب عن أنفسنا، لما تراخينا عن دفعه، وكأنهم باتوا يحسون بعدم جدوى مناقشتهم، أو كأن الراوي قصد من وراء إنطاقهم في ظروف حرجة كهذه، أن يصور حالتهم البئسة لأهل الدنيا، الذين لم يلحقوا بالدار الآخرة بعد، والخبر - كما لاحظنا - يكتسب بعداً يقينياً مؤكداً لا يحتمل التكذيب، وكأنه حقيقة لا تحمل النقاش أو مسلمة لا تراجع فيها.

ج) الأمر: يلتفت كلا الفريقين - وهم قد استياسوا تماماً من الخلاص - إلى خزنة جهنم قائلين: ﴿... ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَى عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٩)، الأمر في هذه الآية يعدل إلى التضرع والتماس العون، وإلى إقناع القوم بضرورة التسليم، وهو يكشف عن مدى عجزهم وخوعهم. «إن الغاية من هذا النوع من الأمر هو التأثير في المتلقي، سلباً أو إيجابياً؛ إما بالرفع من قيمة الشيء حتى يقتنع المتلقي أنه رفيع؛ أو بالحث منه خطأً إلى أن يقتنع المتلقي أنه وضيع» (باديس، ٢٠٠٨، ص ١٠٢).

د) الاستفهام (التقرير والتقريع): يردُّ الخزنة على الجماعة الجاثية في النار بقولهم: ﴿... أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ...﴾ (غافر: ٥٠)، «مثل هذا الاستفهام يحمل في داخله الجواب قبل الاستدلال ويفيد التقرير والتقريع، لا الحيرة والبحث عن الجواب، كما تُوهم الصيغة التي وردت فيها، ومثل هذا الاستفهام دوره في التأثير على المتلقي، حيث يدفعه إلى الشعور بعدم جدوى الاستدلال عليه» (باديس، ٢٠٠٨، ص ٩٨).

فلا يكاد يُسمع منهم بعد هذا إلا قولهم "بلى" وهي قمة المهانة والخزي لمن كان يتعالى على الناس ويعربد في الدنيا مغروراً، وها هو الآن يتأفف على ماضيه ويتحسر على ما اقترفته يده من جريمة في الحياة الدنيا.

هـ) التهكم: ما يلبث هنا أن ينقطع الحوار؛ لأنه لم يعد لديهم ما يقولونه بعد. لذلك تأتي نكاية الخزنة لهم لتزيدهم عذاباً على عذاب ومرارة على مرارة. يردون عليهم بقولهم: ﴿... فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (غافر: ٥٠)، وهذه الطريقة في الخطاب هو من أسلوب التهكم الذي «هو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال، استهزاءً بالمخاطب» (العلوي،

٢٠٠٢، ج ٢، ص ٩٣). إذ يضيئون وميض أملٍ في نفوسهم بقولهم: "فادعوا" لكن سرعان ما يطفئونه عند ما يقولون لهم: ﴿... وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (غافر: ٥٠). فقد نالوا منهم كلَّ النيل عبر هذه السخرية اللاذعة التي يعتبرها البلاغيون استعارة تهكمية أو تلميحية، وهي استعارة عرفها الخطيب القزويني بقوله: «هو لفظ استعمل في ضده وتقيضه» (القزويني، ٢٠٠٤، ص ٢٨٤). أما الغرض من استعمال "النفى"، هو محاولة لبعث القلق والاضطراب في المتلقي، حيث يظل حائراً مصدوماً في بحور من الشك والتذبذب. لم نعد نسمع بعد ذلك نداءً من أحد، لكن صمتهم هذا هو عين الكلام. هل النار التهمتهم فأبعدتم عن مسرح الحوار؟ أم لم يعد لديهم ما يقولونه؟ فمهما كان الموقف، فإنَّ القوم قد أفحموا تماماً بعد أن تلقوا ردود مسكّنة.

الخاتمة

ثمة ملاحظات تجدر الإشارة إليها في نهاية المطاف، وهي:

١. الصلة العضوية: ثمة صلة عضوية في هذه الحوارات القصصية بشقيها الدنيوي والأخروي، حيث تم هذه الصلة عن إحكام البناء القصصي فيها. يقول الدكتور محمود البستاني: «تتضمن سورة مؤمن (غافر) جملة من القصص تحوم على آل فرعون، وهذه القصص أو الحكايات المتنوعة ينتظمها خيطٌ يوحد بينها، بحيث يمكن أن نعدّها قصة واحدة... إنَّ بناء القصة أو الهيكل الهندسي لها يقوم على حيوات أو بيئات مختلفة: بيئة الحياة الدنيا أولاً، ثمَّ بيئة البرزخ أو القبر ثانياً، ثمَّ بيئة النار ثالثاً، وكلّها تحوم على سلوك آل فرعون» (البستاني، ١٣٨٦، ص ٢٣٤).

٢. مكانة الراوي: الراوي في هذين الحوارين يعرف شخصيات القصة في ظواهرهم وبواطنهم، وهذا النوع من الراوي هو الشائع في القصص التقليدية، وفي هذا الحوار القصصي الذي نزل وحياً على النبي ﷺ، يتحدث الراوي من شخصيات القصة ضمن رؤية تسمّى "الرؤية المجاوزة"، يتحدث الدكتور صلاح فضل عن هذه الرؤية في العمل القصصي قائلاً: «فهو - أي الراوي - يستطيع برؤيته المجاوزة أن يخترق جدران المنازل التي يصفها وجمجمة البطل الذي يتحدث عنه، وشخصياته لا تملك دونه سرّاً ولا تعرف عن مصيرها شيئاً، ويتدرج هذا النوع في مراتب عديدة طبقاً لمساحة الحقائق التي يعرفها الراوي ويجعلها أبطاله، ابتداءً من رغباتهم اللا شعورية الدفينة، إلى أقدارهم المحتومة وما يدور في خلد كلِّ منهم عن نفسه

وعن الآخرين» (فضل، ١٩٨٧، صص ٤٣٥-٤٣٦).

٣. موقف البطل: يمارس مؤمن آل فرعون باعتباره بطل القصة، دوراً مهماً يميّز أسلوب الحوار عن غيره في هذه الآيات. «الدور الذي يمارسه البطل (مؤمن آل فرعون) سوَّغ للقصة أن تحمل اسمه عنواناً له نظراً لأهمية الأسلوب الذي تعرضه القصة في ممارسة العمل الرسالي الذي نهض به مؤمن آل فرعون، مما يشكل مع أسلوب المواجهة المباشرة الذي اختطّه بطل آخر وهو موسى عليه السلام، حيث يشكلان معاً طريقتين أو أسلوبين تفرضهما طبيعة المناخ السياسي على الأبطال المجاهدين في توزيعهم بين العمل السري والعلني عبر سوح الجهاد من أجل الله» (البيستاني، ١٣٩٦، ص ٢٣٤).

٤. عنصر الزمن: الزمن في هذا النوع من الحوار القصصي يسير في اتجاه معاكس، بمعنى آخر فإن الأحداث تسير في هذا الزمن بطريقة مختلفة عن النظام الطبيعي في الواقع التاريخي؛ فبينما يسير زمن الأحداث في المستقبل، يسير زمن التلقي في الماضي، على العكس من الزمن في الحوار الماضي، حيث يسير زمن الحدث في المستقبل، بينما يسير زمن التلقي في الماضي.

٥. مكانة المتلقي: ثمة آلية جديدة في هذا النوع من الحوار، كما في الحوار الماضي، وهي تواصل المتلقي مع الحدث، حيث «يهدف إلى تحقيق تواصله مع النص وتفاعله مع معطياته، وهي نفسها تتحقق من خلال اشتراك المتلقي في إتمام دلالة النص» (زايد، ١٩٩٢، ص ١٣٦).

فالمتلقي له حضور فاعل في حركة الحوار، وهذا ما ذهب إليه أحد النقاد المعاصرين بقوله: «يتحول دور القارئ إلى دور إيجابي نشط، دور منتج وبان» (الرويلي، ٢٠٠٧، ص ٢٧٤). ومع أن زمن مشاركة القارئ ليس زمناً واقعياً من الناحية التاريخية، بل هو زمن التلقي، لكنه يساهم مساهمة جادة في تكميل حلقات الحوار «فقد طالت هامة القارئ وعلت هامة القراءة وصار ينظر إلى القارئ على أنه هو المنتج للنص، لا محض متلق سلبي خاضع لسلطته» (الفرج، ١٣٧٩، ص ٢٣). ويتمثل ذلك من خلال الموقف الذي يتخذه من الحدث وتعامله معه وجدانياً، كما قد يرتقي هذا التعامل الوجداني مع الحدث إلى درجة الاقتناع بالفكرة الكامنة فيه، وقد يمارسها المتلقي في حياته العلمية محققاً بذلك ما يرمي إليه أسلوب الحوار القرآني في دعوته إلى الحق. فالمتلقي الأمثل المتأمل في النص القرآني يجد بأنه «وَقَعَ النور في قلبه، واشتماله على لبه وسريانه في حسه، ونفوذته إلى عروقه» (الباقلاني، ١٩٩٢، ص ٢٠٢).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
نهج البلاغة.
١. باديس، نور الهدى (٢٠٠٨م). *دراسات في الخطاب*. تونس: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
 ٢. الباقلاني، القاضي أبي بكر (١٩٩٣م). *إعجاز القرآن*. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
 ٣. البجيرى، أسامة (٢٠٠٠م). *تحولات البنية في البلاغة العربية*. طنطا: دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع.
 ٤. البستاني، محمود (١٣٨١هـ.ش). *البلاغة الحديثة*. قم: دار الفقه للطباعة والنشر.
 ٥. _____ (١٣٨٦هـ.ش). *قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا*. ط ٢، قم: منشورات مؤسسة السبطين العالمية.
 ٦. الجارم، علي؛ أمين، مصطفى (١٩٦٩م). *البلاغة الواضحة*. ط ٢١، القاهرة: دار المعارف.
 ٧. الرويلي، ميجان؛ البازعي، سعد (٢٠٠٧م). *دليل الناقد الأدبي*. ط ٥، بيروت: منشورات المركز الثقافي العربي.
 ٨. زايد، عبده (١٩٩٢م). *عكس الظاهر في ضوء القرآن ولغة العرب*. القاهرة: منشورات دار الصحوة.
 ٩. العلوي، يحيى بن حمزة (٢٠٠٢م). *الطرز*. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
 ١٠. عيد، رجاء (١٩٨٣م). *في البلاغة العربية*. القاهرة: منشورات مؤسسة باترا.
 ١١. الفرج، علي (١٣٧٩هـ.ش). *تكوين البلاغة*. قم: منشورات دار المصطفى لإحياء التراث.
 ١٢. فضل، صلاح (١٩٩٨م). *علم الأسلوب*. القاهرة: منشورات دار الشروق.
 ١٣. فضل، صلاح (١٩٨٧م). *نظرية البنائية في النقد الأدبي*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
 ١٤. القزويني، الخطيب (٢٠٠٤م). *الإيضاح*. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
 ١٥. مكارم الشيرازي، ناصر (١٣٧٠هـ.ش). *تفسير نمونه*. ط ٢٣، طهران: دار الكتب الإسلامية.